من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

شهداء السجاعة

لم ترد لفظة السجاعة في معاجم اللغة. وقد استعملها المبرّد في الكامل واراد بها التزام السجع في الكلام . فاجراها مجرى الكهانة والعرافة . ولا يخفى على البصير في علم الادب آفة السجع في الانشاء العربي . وهو داء قديم سبق في الجاهلية . وبه زوى ما انتهى الينا من اقوال الكهّان والعرّافين والخطباء . وعليه جرى القرآن في بعض السور كسورة الرحمن ، وسورة القمر وغيرهما . وجاءت به ايضاً بعض الفاظ الحديث . وكان اكثر التزامه في المكاتبات الديوانية في الخلافة العباسية . ولعل اشهر من اطنب فيه واطال ، واحتفل غاية الاحتفال ، كان ابو اسحق الصابئ . وقد سلمت من رسائله طائفة من العهود والتقاليد السلطانية ترى اليوم متفرقة في كتب الادب وبعض مخطوطات الخزائن . وهي غاية في التأنق والجزالة . ولكن غلب عليها الاسهاب في تكرار المعنى الواحد في فقرات مترادفة . وبذلك كان حظ الانشاء منها اوفر جداً من حظ التاريخ باستطلاع الآثار . وقد امتاز عصر الصابئ باشهر من نبغ في عهده في اواخر القرن الرابع للهجرة من فحول الكتاب والمنشئين كابن العميد ، والصاحب ابن عباد ، وعبد العزيز ، وبديع الزمان ، والخوارزمي ، والمتنبي ونظرائهم . وكان الصاحب اشدهم ولعاً بالسجاعة وهو فيها نسيج وحده . ولكنه أغرى بها غاية الاغراء حتى اسف فيها الى الإملال والسخف كما سيجيء شاهده .

وعمّت هذه الطريقة الصناعية بعد القرن الرابع كل من كتب وخطب حتى اصبح المعنى في الكلام المسجّع تابعاً للفظ . لا بالعكس . واضحى الانشاء عند المولدين ومن جاء بعدهم ضرباً من الموسيقى والغناء يقصد به خصوصاً الإيقاع

والإطراب . وانصرفت العناية من اجله الى الاعراض دون الجواهر . وكانت الكتابة لديهم كما قال ابن الاثير « كظاهر مموَّه على باطن مشوَّه . او كغمد من ذهب على نصل من خشب ».[1] ومن طالع المقامات الحريرية ، وخطب ابن نباتة مثلاً ، وبعض فصول الصابئ والقاضي الفاضل ، وسائر الآثار الباقية من الرسائل السلطانية ، لا يعيب فيها ، تحت طلاء الفواصل والفقرات ، الا رسوماً ضئيلة من صور الوقائع والاخلاق واوصاف التمدن والعمران في كل الدول التي تعاقبت في الخلافة العباسية . ثم تفاقم ايضاً هذا الداء في ايام المماليك حتى اصبح « باب التسجيع » عند كتاب الدواوين السلطانية « هو علم الانشاء »، كما قال ابن حجة الحموي[2] ، بعد ان تقلد كتابة السلطان الملك المؤيد ، والملك المظفر ، والملك الصالح ، والملك الاشرف ، والخليفة المعتضد بالله . ومن وقف على كتابه المسمى بتهرة الانشاء ، وسائر كتب المصطلح الشريف كالتعريف ، والتثقيف ، وصبح الاعشى ، واعتبر ما فيها من نسخ التقاليد والعهود والتواقيع وبقية انواع المخاطبات الديوانية يدرك صحة قول ابن حجة ، ويستعظم خطب ضياع اعمار القوم في العناية بالقشور دون اللباب وتزويق مثل هذه الاباطيل والفضول .

وليس المعنى وحده اول شهداء السجع في الادب العربي . بل للغة نفسها سهم ونصيب في هذه الشهادة . وحسبنا ان نذكر على سبيل التمثيل فقط ، دون اقل استقصاء ، ما جاء في الحديث من مخالفة الوضع والقياس حباً بالمقابلة والمزاوجة . وهو قوله : « أعيذه من الهامّة والسامّة . ومن كل عين لامّة » بدلاً من مُلِمّة . لان الاصل فيها من ألمّ فهو مُلِمّ . وكذلك قوله : « ارجعن مأزورات غير مأجورات ». والاصل موزورات بالواو لانه من الوزر . ومنه قوله : « دعوا الحبشة ما ودعوكم . واتركوا الترك ما تركوكم ». والاصل ما وادعوكم من الموادعة . ولكن حذف الالف طلباً للموافقة[3] . ولا تخلو كتب الادب والامثال من اشباه لذلك ونظائر .

على ان خطب اللغة من التسجيع اهون جداً من خطب التاريخ . وليس يعلم

١) المثل السائر ، ص ١١٧

٢) خزانة الادب ، ص ٤٢٣

٣) المثل السائر ، ص ١١٥–١١٦ ؛ وخزانة الادب ، ص ٤٢٤

الا الله وحده قدر ما ضاع من حقائقه بين زخارف الالفاظ ومحسّنات الخيال والتورية والمجاز والاستعارة الغالبة على كل هذه الاضابير التي نضّدتها ايدي كتاب الانشاء الشريف وحدهم في الممالك الاسلامية مدة عشرة قرون كاملة . فضلاً عما تشوّه واستبهم من جوهر احاديثه ورواياته في ما دُوّن منها باقلام متكلفي التاريخ من عشاق القوافي كابن عربشاه ، وابن حبيب الحلبي[1] ، والعماد الاصبهاني ، والعتبي واضرابهم في تواريخهم المسجّعة التي وضعوها على طريق المحاياة والمباهاة . ولينظر اية فائدة للحقيقة التاريخية تُستخلص من معميات كتاب الفتح القدسي العماد وهو يكاد يكون بشوارده واسجاعه ضرباً من الطلاسم والرُقى.

ومن شهداء السجع في ايام الامويين وابن الزبير اسماء بن خارجة ، ونفر من الازد ، وقيس عيلان ، وتميم . قال المبرد : « كان المختار يدّعي انه يُلهَم ضرباً من السجاعة لامور تكون . ثم يحتال فيوقعها فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل . فمن ذلك قوله ذات يوم « لتنزلن من السماء . نار دهماء . فلتحرقن دار اسماء » . فذُكر ذلك لاسماء بن خارجة . فقال : قد سجّع بي ابو اسحق ؟ هو والله محرق داري . فتركه والدار . وهرب من الكوفة . وقال في بعض سجعه : « اما والذي شرع الاديان . وجنّب الاوثان . وكرّه العصيان . لاقتلن ازد عمان . وجلّ قيس عيلان . وتميماً اولياء الشيطان . حاشا النجيب ظبيان » . فكان النجيب ظبيان يقول : لم ازل في عمر المختار انقلب آمناً ».[2]

ومن حماقات الصاحب ابن عباد في التسجيع انه كتب لقاضي قُمّ ، وهي مدينة بين اصبهان وساوة : « ايها القاضي بقم . قد عزلناك فقم . » فكان القاضي يقول اذا سئل عن سبب عزله : انا معزول السجع من غير جرم ولا سبب[3] .

ولم تخفَ هذه الحماقة من الصاحب على ابي الفضل بن العميد . وحكى عنه

---

١) نقل وفاته ابن تغري بردي في سنة ٧٧٩ للهجرة (١٣٧٧ م) وقال : ورتاريخه موجز وهو قليل الفائدة . ولذلك لم انقل عنه الا نادرًا . فانه كان اذا لم تجبه القافية سكت عن المراد (النجوم الزاهرة . طبعة ليدن ٥ : ٢٢١-٢٢٢)

٢) الكامل للمبرد ٢ : ١٦٧

٣) معجم البلدان لياقوت ، طبعة اوربة ، ٣ : ١٧٦

انه خرج مرة من الريّ يريد اصبهان ومنزلهُ وَرَامين. وهي بُليدة في نواحي الريّ. قال: فتجاوزها الى النُوبَهار وهي قرية غامرة وماء ملح، لغير شيء. الّا ليكتب لي: كتابي هذا من النوبهار. يوم السبت نصف النهار[1].

وممن اوشك ان يُعزَل ايضاً بعلة السجع ابو الحسن بن نيداد، عامل كور الاهواز في وزارة علي بن عيسى بن الجراح. اتفق له ان وقعت النار في ارزّ من ارتفاع ناحيتهِ فاحترق. «فكتب الى علي بن عيسى كتاباً اقام فيه عذره. وسجع في كتابه سجعاً زاد فيه. فوقّع علي بن عيسى على ظهر الكتاب «انت يا ابا حسن تكتب فتجيد. والاسم الحميد. خير من الكلام السديد. ضيعت علينا ارزّاً حصّلته. وعوّلت بنا على كلام ألّفته. وخطاب سجعته. اوجب صرفك عما تولّيته. والسلام.» فقال ابو الحسن بن نيداد ما صرفني غير السجع. وكتب اليه: «وصل كتاب سيدنا الوزير اطال الله بقاءه مشتملاً على وصف وصرف. فاما الوصف فهو منه ادام الله تأييده مع محله من الصناعة. نهاية الفخر والسعادة. واما الصرف عن الاعتذار. بما جرى به المقدار. فما جزاء من اعتذر من حال لا دَرَك عليه فيها ان يُصرف عن ولاية لا جناية منه عليها؟ والاعتذار بلفظ الصواب. اولى من الاحتجاج بسوء الخطاب.» فاقره علي بن عيسى على عمله[2].

ومن وزراء العباسيين الذين اشتهروا بالرقاعة والولع بالتسجيع اعتباطاً ولو في غير محله ابو علي محمد بن عبيد الله بن خاقان، وزير المقتدر بالله، كتب الى بعض العمال: «الزم رفقك الله المنهاج. واحذر عواقب الاعوجاج. واحمل ما امكن من الدجاج». فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية. فقال هذا دجاج وفّرته بركة السجع. وتقدم بان يباع ويورد ثمنه في الحساب. فأُورد منسوباً الى ثمن دجاج السجع[3].

وحدّث ابو عبدالله بن ابي العلاء الكاتب قال: كنت بحضرة الخاقاني وقد عرض عليه كتاب كُتِب من الديوان الى عامل النيل (في سواد الكوفة) بحمل

١) معجم البلدان لياقوت، طبعة اوربة، ٤: ٨١٧.
٢) تاريخ الوزراء للصابي: ٢٢٥-٢٢٦.
٣) تاريخ الوزراء للصابي: ٢٢٧

غلة كانت حاصلة قبله . وأنكر عليه تأخيرها . فوقع اليه في الكتاب: « احمل الغلة . وأزح العلة . ولا تجلس متودعاً في الكِلة . » (قال) ثم التفت الي وقال : يا ابا عبدالله ، في النيل بقّ يحتاج الى كِلل ؟ فقلت اي والله ، واي بق . ومن اجله يلزم الناس الكِلل نهارًا وليلًا . (قال) فسرّ وقال : نحمد الله على حسن التوفيق » . ونفضني ذلك عنده[٢] .

ومن هذه النكات والامثال القليلة يتضح عظم ما جناه السجع في الغالب على الادب العربي والتاريخ الشرقي . وما افناه باطلًا من القرائح والاعمار والاوراق .

٢) تاريخ الوزراء للصابئ ٢٧٧